

من الخطاب إلى النص هيرمينوطيقا (التماسف) و (التمك) عند (ريكور)

د. عبد الله علي عمران سعد*

المستخلص

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على نظرية الخطاب عند ريكور وأهميتها داخل مشروعه الهيرمينوطيقي (التأويلي) عموماً، وترتكز نظرية الخطاب على إشكاليتين أساسيتين، هما (الاستعارة) و(الرمز)، وهما إشكاليتان يظهران بشكل أساسي، عندما يتغير معنى الخطاب نتيجة للكتابة التي ينتقل فيها الخطاب من الحالة الشفهية إلى حالة النص المكتوب، وكيف أن ذلك يؤثر على كل أطراف الحال الحوارية، المتكلم (المؤلف-المرسل) والمستمع (المتلقي-القارئ) والسياق الثقافي والاجتماعي لكل من المرسل والمتلقي، ومن خلال ذلك يمكن معرفة مناقب ومثالب القراءة والتأويل، ولتحقيق ذلك كان لازماً الاستعانة بالمنهج التاريخي لنتبع كيفية تطور نظريات ريكور، ومنهج مقارنة لمعرفة أوجه الاختلاف والائتلاف بينها وبين نظريات أخرى، ومنهج تحليلي نقدي لمعرفة مواطن ضعفها وقوتها .

Abstract:

The study aims to shed light on Ricoeur's discourse theory and its importance within his hermeneutic project in general. Discourse from the oral state to the state of the written text, and how this affects all the parties to the conversational situation, the speaker (author-sender) and listener (receiver-reader) and the cultural and social context of both the sender and the recipient, and through this it is possible to know the advantages and disadvantages of reading and interpretation, and to achieve It was necessary for us to use the historical method to track how Ricoeur's theories develop, a comparative method to find out the differences and coalitions between them and other theories, and a critical analytical method to find out their weaknesses and strengths

* أستاذ مساعد-جامعة عمر المختار-كلية الآداب-قسم الفلسفة

abdullah.ali@omu.edu.ly

مقدمة

في إطار سعي الفيلسوف الفرنسي (بول ريكور) (Ricoeur 2005-1913) لوضع نظرية عامة لتأويل النصوص تتخطى كونها نظرية لتأويل النصوص الدينية، و بعد أن تبين له أن إشكالية المعنى ترتبط بإشكاليات أخرى مما يحول بينها وبين أن حاول ريكور تناول إشكالية الخطاب، في سياق التمييز بين (الخطاب) وبين (اللغة) حيث يعني الخطاب الجانب التطبيقي (الأحاديث التي تدور بين الأفراد) أو (الاستعمال اليومي للغة) وتعني اللغة (مجموعة القواعد العامة التي يلتزم بها الأفراد أثناء حديثهم)، بمعنى آخر التمييز بين الخطاب بوصفه الجزء المتغير و المتطور و الحامل للمعنى، وبين اللغة بوصفها الجزء الثابت و المؤطر للمعنى. والأهم من ذلك هو أن الخطاب هو الجزء الذي يتداخل فيه الزمن، بينما اللغة هي النظام الثابت دون أدنى تأثر بالزمن.

ومن الواضح أن ريكور يحاول أن يجاري الطرح البنيوي لفكرة (الكلام) و(اللغة) إحدى أبرز ثنائيات دي سوسير، ولكن في نفس الوقت يحاول أن يتجاوز ثنائية أخرى، وهي ثنائية (الترامن) و(التعاقب) بحيث يجعل من الخطاب مشمولاً بالحمولة الزمنية التي تؤثر في المعنى بينما اللغة أكثر ثباتاً وأقل تأثراً، ولكنه في سياق ذلك يجعل للخطاب مرجعية تتصل بالواقع تلك الحالة الحوارية التي تجمع بين عناصر الخطاب (المرسل-المستقبل-السياق).

وبشكل عام لم تكن نظرية الخطاب سوى تمهيد لنظرية النص، التي يعدها ريكور ركيزة أساسية لثنائية التأويل (الكتابة-القراءة)؛ لأن الخطاب عندما يدون ويصبح نصاً، يكتسب مجموعة من الصفات الجديدة، ويفقد العديد من الصلات التي كانت تسهم في تحديد المعنى، فيعلن موت مؤلفه وكل ما له علاقة بسياقه التاريخي والاجتماعي والثقافي، ويصبح مغزاه معلقاً، ينتظر تدخلا من القارئ، وهو ما يفتح المجال أمام ظهور مناقب ومثالب القراءة والتأويل، بما تحقّقه من تجاوز للماضوية وإقحام مفرط للذاتية.

المبحث الأول: نظرية الخطاب

أولاً: أهمية الخطاب

تحتل نظرية الخطاب، موقعا بارزا في هيرمينوطيقا ريكور، إلى الحد الذي اعتبر فيه أن الهيرمينوطيقا هي فن كشف الخطاب في الأثر الأدبي. (ريكور، 2001، ص 85) وعلى الرغم من أهمية النصوص في هيرمينوطيقا اللاهوت إلا أنها لم تكن خالية من الخطاب؛ انطلاقاً من كون (الكلام) اسبق من الكتابة، كما فسر ريكور الأسطورة على أنها نوع من أنواع الخطاب وهو ما يطلق عليه الخطاب المقنع Masked discourse. (Wood, 2011, p 66) وبشكل عام يعتبر الخطاب مفهوماً ضرورياً لدى ريكور لكي يبرر

به التمييز بين الكلام المتحدث به (الشفهي) والكلام المكتوب (النصوص). (2001، ص 141) ولذلك يعتبر الخطاب بشكل عام هو الأرضية المشتركة التي تشمل نظرية النص والاستعارة. (ريكور، 1999، ص 170) ويعد الخطاب بالنسبة لريكور، هو القدرة على بلورة -أو التعبير عن- Articulate الخبرة Experience بواسطة اللغة، دون أن يكون الخطاب ذاته منتما إلى اللسانيات. (Kaplan, 2008, p 25) ويعتبر (ريكور) القدرة على الكلام وإنتاج الخطاب، قدرة أساسية وأولية، ذلك أنها تحضر في كل القدرات الأخرى، التي تشكل بنيات أساسية للإمكانات البشرية، فعبّر القدرة على الكلام لا يكون الإنسان قادرا على قول الأشياء وبناء المعرفة والثقافة فحسب، بل يكون قادرا على الدلالة على العالم و الغير وتعيين ذاته بوصفه الذات التي تصدر الخطاب والمنطوقات الدالة. (المنصف، 2017، ص 11)

بل إن ريكور لا يستثني ما هو أدنى من الملفوظ، أو ما يطلق عليه (القوة اللا تعبيرية للخطاب) The illocutionary force والتي تنتمي إلى مستوى لفظي أدنى مثل (الإيماءات والنبرات). (2001، ص 82) وحاول ريكور الاستفادة من نظريات أفعال الكلام (لأوستن) لكونها لم تميز بوضوح بين القول والفعل، ولذلك فإن مفهوم ريكور للغة على أنها خطاب هو نظرية براغماتية أو دلالية، يكون فيها للأقوال معان تستخدم على نطاق واسع في سياقات اجتماعية. (Kaplan, 2008, p 9) وهو ما أطلق عليه ريكور، مصطلح أفعال الخطاب Act of discourse أو (القوة الإيحائية). (ريكور، 2016، ص 142)

ثانياً: - بنية الخطاب (بين الخطاب و اللغة)

يؤكد (ريكور) على التمييز بين اللغة من جهة وبين الخطاب من جهة أخرى للتأكيد على مجموعة خصائص لكل منهما، بل يمكن القول أن نظرية ريكور في اللغة، وأيضاً في الهيرمينوطيقا الفلسفية، تقوم على التمييز الشهير بين النظام System و الخطاب discourse، وهذا التقسيم يركز بدوره على تمييز عالم اللسانيات دي سوسير، بين اللغة Langue والكلام Parole. (Ricoeur, 1981, p 11) أي التمييز بين نظام اللغة، وبين استخدام المتكلمين لذلك النظام، وإن كان ريكور قد انتقد البنيوية في هذا الجانب، معتبراً أن توسعها أدى إلى أفول الخطاب، ولذلك يعتبر الخطاب إشكالية عندنا اليوم، لأن إنجازات علم اللغة الأساسية تهتم باللغة من حيث هي بنية ونسق، لا من حيث هي مستعملة، مما يعني ضرورة إنقاذ الخطاب من منفاها الهامشي. (ريكور، 3، 2006، ص 25)

ورغم اختلاف ريكور مع البنيوية في عدة مواضع، إلا أنه يتفق معها، لأن استعمال الخطاب من طرف متكلمين فرديين، يقوم على قواعد دلالية وتركيبية، تلزم الذي يأخذ الكلمة، لأن معنى أن نتكلم، هو أن نكون أمنا على قصد ما نقول، أي نستعمل كلمات وجملا، حسب النظام المقرر من طرف العشيرة اللسانية.

(ريكور، 3، 2006، ص 188) أي أن هناك جانبا بنائيا للخطاب، يقوم على وجود قواعد نظرية موجودة مسبقا، في إطار الجماعة التي تتكلم لغة ما. (ريكور، 3، 2006، ص 24) حيث يحافظ ريكور على الرؤية البنوية للغة، والتي تقوم على أن للغة خصائص موضوعية وأنها موضوع للعلم التجريبي، مع الاحتفاظ بحق الوعي والفاعل بنقل المعنى. (Kaplan, 2008, p 29) أي أن ريكور يتفق مع البنوية في إعطاء أهمية للبنية، ولكن يمنح تلك البنية للخطاب نفسه.

كما إن الخطاب حدث يقوم على وحدات مختلفة؛ فإذا كانت اللغة عبارة عن نسق من العلامات، أي العلامات الصوتية و المعجمية، فإن الوحدة الحقيقية للغة حين نتكلمها أي حين نحققها وننجزها بالفعل، هي استعمالنا لجمل بأكملها وبالتالي فإن الجملة هي الوحدة الحقيقية للخطاب، الذي قد يكون كتابة أو شفاهة. (المحمداوي، 2013، ص 1287) والسمة الأساسية للخطاب هي تكوينه من خلال سلسلة من الجمل، حيث يقول أحد الأشخاص، شيئا ما، لشخص آخر، عن شيء ما، أي أن الخطاب رغبة تواصلية دلالية، أو رغبة في القول، تنتهي بمعنى ما، متجاوزة لحدث إنتاجه. (Kaplan, 2008, p 30)

وفي ذات السياق يشير ريكور إلى قضية المعنى العام، التي تتداخل مع كل الأساليب البلاغية المستخدمة داخل الخطاب نفسه، فحتى لو أن البلاغة تنظر إلى الاستعارة على أنها كلمة، ومرجعيتها هي المعنى الأصلي الذي تمدد هنا ليحل محل معنى آخر، نحن هنا نستعيز عن كلمة بكلمة أخرى، غير أن الكلمة لا معنى لها من دون الجملة الكاملة، الكلمة في علم السيمياء، ليست سوى إشارة لا يكتمل معناها إلا في علم الدلالة، والحد الأدنى للوحدة هنا هي الجملة مكتملة، غير أن الجملة نفسها ليست سوى مقطع من شيء آخر، وهي لا تكتسب كل معناها إلا في داخله، وهذا هو الخطاب الذي قد يكون قصيدة أو منشورا أو كتابا بكامله. (ريكور، 2009، ص 9)

فالخطاب عند ريكور، لا يخلو من البنية والنسق، ولكنها بنية ونسق يختلفان عن التصور البنوي القائم على اللغة، فنسق الخطاب غير منفصل عن العالم. (2001، ص 141) ولذلك نجد ريكور، يقر بأن للخطاب بنيته الخاصة به، ولكن هذه البنية ليست بالمعنى الذي نتحدث عنها البنوية (وحدات منفصلة للنحو داخل العمل) بل بالأحرى هي تركيبية synthetic. (Farquhar, 2010, p 41) فالخطاب ذو بنية خاصة به، ليست ببنية الوحدات المعزولة عن بعضها، بل بنية التحليل التأليفي، أي التواشج والتفاعل بين وظيفتي تحديد الهوية والإسناد في الجملة الواحدة. (ريكور، 3، 2006، ص 42) أي أن الخطاب لا يقبل التحليل إلى معاني الجمل المفردة، التي يتكون منها، وإن أي تحليل للخطاب، استنادا إلى المماثلة في التفسير النحوي أو البلاغي، سيفقد بنية المعنى الأكبر، المجازية التي ينتجها الخطاب ككل. (وود، 1999، ص 190)

ثالثا: - الخطاب بوصفه حدثا (زمنية الخطاب)

يعدد ريكور مجموعة من السمات العامة للخطاب، انطلاقا من كونه حدثا، فالقول بأن الخطاب حدث ما، يعني أولا القول بأن الخطاب قد تحقق زمنيا في الحاضر، في حين أن نسق اللغة مضمّر وخارج الزمن، كما يعني أن ليس للغة ذات (متحدث أو قائل أو متكلم)، بينما الخطاب يحيل إلى قائله، أي أن الخطاب مرجعية، فخاصية الحدث ترتبط بشخص متكلم، كما أن اللغة تحيل إلى ذاتها في عالمها الخاص، فهي مجموعة علامات داخل النسق نفسه، بينما الخطاب يشير إلى عالم يريد وصفه، وبهذا المعنى يكون الخطاب محل لكل الإرساليات، أي للتبادل مع آخر وهو من يوجه إليه الخطاب. (2001، ص 80)

يرى (ريكور) أن الخطاب يعتبر بمثابة حدث: أي أن شيئا ما يحدث عندما يتحدث أحدنا. (2001، ص 79) وإن الخطاب منتج بوصفه حدثا، وبحكم كونه كذلك فهو نظير اللغة المفهومة بوصفها شفرة أو نسق. (1999، ص 170) فاللغة (لكونها نسقا) هي خارج الزمن، بينما الخطاب زمني، واللغة مغلقة، والخطاب منفتح على العالم، واللغة مجرد نسق، بينما في الخطاب يتم وضع المعنى المرسل إلى الآخر، وهذا كله يجعل من الخطاب حدثا. (ريكور 3، 2006، ص 27) واستعان ريكور بفكرة الواقعة الكلامية The object of the speech (حدث الخطاب خلال الزمن)، معتبرا أن فكرة الواقعة الكلامية تعطينا مفتاح الانتقال من لسانيات الشفرة إلى لسانيات الرسالة، فهي تذكرنا أن الخطاب يدرك زمنيا، وفي لحظة آنية، في حين أن النظام أو النسق اللغوي، افتراضي وخارج الزمن، ولكن هذا لا يحدث إلا في حالة التحرك الفعلي والانتقال من اللغة إلى الخطاب. (ريكور 3، 2006، ص 37)

بكلمات أخرى، يؤكد ريكور على أن اللغة بوصفها (نظاما) لا وجود لها، بل إن وجودها افتراضي فقط، والرسالة (المتضمنة في المعنى) وحدها هي التي تضيف الفعلية على اللغة، ثم يأتي الخطاب ليوطد وجود اللغة نفسه، وذلك لأن لكل رسالة لغوية وجودا زمنيا، وزمنية الرسالة هي التي تضيف عليها الفعلية، على العكس من ذلك لا يوجد النسق اللغوي أو النظام وجودا فعليا، بل إن وجوده افتراضي، بالتالي فالرسالة هي التي تضيف الوجود الفعلي على اللغة بكاملها، والرسالة أو الخطاب ليست مجرد لحظة وسيطة أو زائلة، بل إن في وسعنا إعادة صياغتها بكلمات أخرى في اللغة نفسها أو ترجمتها إلى لغة أخرى، والرسالة برغم هذا التنقل بين العبارات واللغات، قادرة على الاحتفاظ بهويتها الدلالية. (ريكور 3، 2006، ص 34، 35)

رابعا: -الخطاب و الحلقة الحوارية (المتكلم و المستمع)

وإضافة إلى كل ما سبق يؤكد ريكور على أن من أوجه الخطاب المهمة أنه يتوجه إلى شخص ما، فهناك طرف آخر هو متلقي الخطاب، وحضور هذين الاثنين: المتكلم والمستمع، هو الذي يشكل اللغة بما

هي تواصل. ويشكل الحوار بنية جوهرية في الخطاب، فحتى المناجاة الفردية في خطاب الشخص مع ذاته هي حوار مع الذات - كما يقول أفلاطون - ويحتفظ السؤال والجواب بحركة الكلام وفاعليته. (ريكور 3، 2006، ص 42)

ويثني ريكور على نموذج (ياكيسون) الذي يبدأ من علاقة ثلاثية بين المتكلم والمستمع والرسالة، إضافة إلى ثلاث عناصر تكملية وهي الشفرة وقناة الاتصال والسياق. ويعتبر ريكور أن هذا النموذج مثير للاهتمام لأنه يصف الخطاب وصفا مباشرا وليس كبقية من بقايا اللغة. كما أنه يصف بنية الخطاب. كما يلحق وظيفة الشفرة بعملية الربط الاتصالي. (ريكور 3، 2006، ص 43) وبذلك يمكن القول أن وجود المتكلم والمستمع هما أبرز خاصية للحوار، والتي بناء عليها تتراكم بقية الخصائص الأخرى، لأن من خلالها تتحقق فاعلية اللغة بوصفها تواصل ويتم نقل المعنى أو الفحوى من طرف لآخر.

خامسا:- الخطاب بوصفه (دلالة)

1- المعنى Meaning و الواقعة Event

إن اللغة بوصفها خطاب بالنسبة لريكور، هي جدلية الواقعة و المعنى من جهة والمعنى والمرجعية من جهة أخرى، إذ يحدث الخطاب بوصفه واقعة، ولكن له معنى مثاليا قابل للتكرار يسمح لما يقال أنه يتكرر أو يُحدد أو يقال بشكل مختلف، الخطاب هو الحدث المتلاشي الذي يجعل اللغة واقعية ولها كيانها الذي يمكن تعريفه وإعادة تعريفه على هذا النحو، كواقعة مرجعية (عن شيء ما)، أو ذاتية (قالها شخص ما)، أو مؤقت (يقال في لحظة ما)، أو اتصالي (يقال لشخص ما). (Kaplan, 2008, p 29)

ولذلك يرى ريكور إن معنى الخطاب يبقى مرهونا بمغزاه ومرجعيته، وهما مصطلحان مرتبطان بالواقعة والمعنى. (Kaplan, 2008, p 9) وهذا ما يجعل جدلية الواقعة والمعنى ذات أهمية كبرى بالنسبة لريكور، من حيث قدرتها على كشف مميزات الخطاب، حيث يكون للخطاب طابع حافل بالأحداث، بقدر ما يكون الكلام بمثابة إدراك لواقعة تختفي على الفور، وعلى الرغم من أن نطق الجملة هو ظاهرة سريعة الزوال، إلا أنه يمكن إعادة تعريف الجملة على أنها نفسها في مناسبات لاحقة. (1981, p xxii)

وحتى إن كان الخطاب ينتج بوصفه حدثا، إلا أنه ينقاد للفهم بوصفه معنى. (2016، ص 139) فكون الخطاب واقعة قابلة للتحقق مرتبط بكونه واقعة تحمل معنى، وهذا ما ينقل الحوار من تحقق الواقعة إلى فهم المعنى، فإذا تحقق الخطاب كله بوصفه واقعة، فهم الخطاب كله بوصفه معنى، فليست الواقعة من حيث هي زائلة ما نريد فهمه، بل معناها، إن ما يجربه شخص ما، لا يمكن نقله من حيث هو تجربة كاملة بعينها إلى شخص آخر. وإن كان هناك شيء يعبر من الواحد إلى الآخر، من نطاق حياة إلى أخرى. وهذا

الشيء ليس هو التجربة، بل معناها، حيث تعد التجربة شيئاً شخصياً ولكن معناها عام، وليست الواقعة هي التجربة فقط، بل هي التبادل فيما بين الذات نفسه، هي حدث الحوار. (ريكور، 3، 2006، ص 44)

2- المعنى و المرجعية

خلال الخطاب يحدث تداخل بين النوايا الذاتية للمتحدث، وبين معنى الخطاب ذاته Meaning of discourse. وبذات الكيفية يحدث تداخل بين محاولة فهم ما الذي يعنيه المتحدث، وبين ما يعنيه الخطاب. (1981, p 200) فالخطاب هو حدث يحدث خلال زمن، ولكن يتم فهمه على أنه ذلك المحتوى الاقتراحي propositional content الذي تحمله الجملة. أي أن المعنى يكون ذاتياً بما ينوي المتحدث أن يقوله. ويكون في المقابل المعنى موضوعياً بما تعـود عليه الضمائر والأفعال في الجملة. (Kaplan, 2008, p 50)

لمعنى الخطاب مظهران عند ريكور: المعنى الذي يريد نقله قائل الخطاب، والمعنى الذي ينقله الخطاب فعلاً. لكن هذين المظهرين ليسا سوى وظيفتي الهوية والإسناد. وهنا يسترد ريكور مصطلحات هوسرل في التمييز بين التعقل الصوري للقصد، وتعقل المضمون الخالص للقصد. وأيضاً يستخدم تمييز فريجة بين المغزى (المعنى) والإحالة (المرجعية) Reference and sense، حيث المغزى هو الدلالة المستحصلة من المضمون الفعلي الذي ينقله الخطاب، والإحالة هي المدلول الخارجي الذي يحيل إليه. وجدلية المعنى هذه تشير إلى ما يودعه الناطق في نطقه، والانسراب اللغوي الذي تمليه قوانين اللغة الداخلية. فاللغات-كما يقول ريكور- لا تتكلم بل الناس هم من يتكلمون، ولكن الناس لا يستطيعون الكلام من دون شفرة ونسق وجد قبلهم وسيوجد بعدهم. (ريكور، 3، 2006، ص 14) ولعله هذه الإشكالية هي أساس الجدل الريكوري، حيث تحاول رصد مواطن الاختلاف والاتفاق بين ذاتية المعنى وموضوعيته، المقابلة لذاتية القائل وموضوعية الخطاب.

وكل هذا الجدل حول المعنى المنقول داخل الخطاب منحصر في المعنى داخل الخطاب نفسه، أي بين ما يقصده الكاتب وما تتبحة قواعد اللغة، سواء أكان مطلقاً مثل المعنى التعبيري المباشر، أو ذاتياً كالمعنى التمريبي الذي يضمه الكاتب داخل معنى آخر. ولكن هذا جزء من الصورة، إذ أن هناك جدل آخر يمكن الولوج إليه، يتمثل في جدلية المعنى الذاتي للخطاب، وذلك من خلال التمييز بين ما نعنيه ب(ما الخطاب؟) أو ما نعنيه (عما الخطاب؟). فما الخطاب هو مغزاه Sense، أما عما الخطاب فهو مرجعه و إحالته Reference، ففي حين يكون المغزى محايثاً في الخطاب، وموضوعياً بالمعنى المثالي للكلمة، تعبر الإحالة عن الحركة التي تتعالى بها اللغة على ذاتها. يقرن المغزى وظيفته التحديد والوظيفة الإسنادية بالجملة، بينما تربط الإحالة اللغة بالعالم. (ريكور، 3، 2006، ص 49)

أن معنى الخطاب المتضمن داخل السياق العام لا ينفصل عن الواقع المحيط به. حيث المرجعية له هي العالم الذي يقيمه هذا الخطاب، هذا النص المتكامل الذي يعطي المعنى. باختصار، فإن الاستعارة في القصيدة لا تتخذ كل معناها إلا بالاستناد إلى كل العالم الذي يعيد الشاعر وصفه وتركيبه، أي أننا هنا أمام عالم التأويل الذي يشير إلى قدرة الكاتب أو المبدع أو الفيلسوف على إعادة صياغة الواقع الذي نعيشه أو العالم الذي يلفنا. (ريكور، 2009، ص 9) أي أن هناك أكثر من زاوية لرؤية المعنى، زاوية المعنى الذي تشير إليه العلاقة التي تربط بين الكلمات والجمل. بينما هناك معنى آخر يتجلى حين يتم ربط الخطاب بالعالم من خلال الإشارة إلى سياق تاريخي أو جغرافي أو اجتماعي.

بمعنى آخر فإن المعنى ليس نفسياً صرفاً، بل يوجد داخل الخطاب نفسه، حيث يترك الناطق بصماته على معنى النطق، حيث تشير البنية الداخلية للجملة إلى المتكلم بها من خلال ما يطلق عليه اللغويون أدوات التحويل، حيث ليس لضمائر المتكلم معنى موضوعياً في ذاتها، بل تقتصر وظيفتها على إحالة الجملة بكاملها إلى فاعل الواقعة الكلامية. وهذا الشيء مفيد لكونه يفرق بين الخطاب والشفرات اللغوية، وبالتالي وضع تعريف ليس نفسياً بل دلالياً محضاً للمعنى عند الناطق، إذ يشير معنى النطق إلى معنى الناطق، بفضل إحالة الخطاب إلى ذاته بوصفه واقعة. (ريكور، 3، 2006، ص ص 39، 40)

سادساً: -الخطاب وسيطاً بين الذات والعالم

كما أن القدرة على الكلام تعطي الخطاب وظيفة شعرية (أدبية) تستند إلى إمكانات اللغة في الاستعارة والمجاز، وهو ما تجد فيه الذات القدرة على التمثيل والتركيب والحكي والتخيل، وسعى ريكور إلى فتح الخطاب ومن خلال ذلك اللغة، على العالم، حيث يفتح الخطاب الشعري على العالم ويحيل إليه ويحمل للغة مظاهر من الواقع لا يحققها الخطاب الوصفي. (المنصف، 2017، ص 11)

وبذلك يصبح الخطاب مرجعياً؛ بمعنى أنه يشير إلى الواقع من جهة، وهو أيضاً له مرجعية ذاتية بالضرورة؛ فالمرجعية المزدوجة للخطاب ضرورية لريكور، لأن الخطاب يشير دائماً إلى الواقع وإلى الذات، وفهم معنى الخطاب ينطوي على تخصيص مرجعية مزدوجة: (عالم) و(ذات) يمكن أن توجد في ذلك العالم. (CASEY, 2019, p 29) وهذه النقطة هي جوهر نظرية الخطاب لدى ريكور، فمن خلال الخطاب يولد المعنى وتكتسب الذات فاعليتها، فهي تكتشف العالم وتسهم في تغييره أيضاً، كل ذلك من خلال المعنى.

المبحث الثاني: من الخطاب إلى النص

أولاً: -جدلية العلاقة بين الخطاب والنص

تجدر الإشارة بادي ذي بدء إلى أن جدلية (الخطاب-النص) شغلت الأوساط الفكرية الغربية بشكل عام، وهناك من لا يميز بينهما أصلاً، معتبراً أن الخطاب هو النص والعكس صحيح، وأن ما يصلح نسبه للنص يصلح نسبه للخطاب أيضاً، الفارق بينهما، أن الخطاب شفوي صوتي، بينما النص تشكيلي مكتوب، في حين أن هناك من يرى بتعارضهما من حيث المضمون، أي أن الخطاب أكثر شمولية، وأقل قواعداً، بينما النص أكثر خصوصية والتزاماً بالقواعد اللسانية، بل ويعتبر النص أقرب إلى العلمية من الخطاب، بينما يرى آخرون أمثال ياكبسون، أن الخطاب هو الحدث الأول للكتابة والتي تعد ترجمة للحدث الشفوي. (عليمة، 2008، ص 600)

وبالنسبة لريكور، فنظريته عن النص، تعد استمراراً لنظريته عن الخطاب، بل هي تنمة لها، ولو وضعنا في الاعتبار أهمية النص بالنسبة لهيرمينوطيقا ريكور اللاهوتية، لأمكننا القول، أن الهدف أصلاً من نظرية الخطاب، هو إرساء نظرية في النص، إذ على الرغم من كل المميزات التي يكتنزها الخطاب، إلا أنها لا تمثل أوج ما يمكن ضخه من معنى بواسطة اللغة، وأن هناك العديد من المميزات الإضافية، التي تتجلى عند تحويل الخطاب إلى نص، ومن خلالها يصبح أكثر قدرة على ممارسة وظيفته التواصلية في التجربة الإنسانية، وهو ما يخوله الاحتفاظ بكل مزايا الخطاب، وفي ذات الوقت يضيف عليه مميزات أخرى خاصة بالنص، وذلك من خلال نظريته التي بين فيها كيفية إدراك الخطاب وكأنه نص، و تصنيف الخطاب ضمن فئة النصوص. (1981, p 43) كما حرص ريكور على البقاء ضمن خط فلسفة اللغة، و ذلك بانشغاله بمفهوم النص، بوصفه وحدة الخطاب الكبرى، فالأسطورة نص بالقياس إلى الرمز، و كذلك سيكون السرد- سنوات بعد ذلك- هو النص بامتياز. (ريكور 2، 2006، ص 73)

ولأن المكانة الأولى التي تتعهد الهيرمينوطيقا بتجسيدها، بالنسبة لريكور، هي بالتأكيد اللغة، وبشكل أكثر تحديداً اللغة المكتوبة، حيث يمكن النظر إلى النسق الفلسفي الخاص بريكور على أنه محاولة لإعادة تنظيم الهيرمينوطيقا عن طريق مفهوم النص. (1981, p 4) وبشكل عام يرى ريكور أن الهيرمينوطيقا، تقف بين حدين، حيث لا يمكن القول بأنها مجرد تأويل موسع للعبارات الرمزية، حيث يعتبر ذلك مرحلة الحد الأدنى المتمثل في الاعتراف بالطابع اللغوي للتجربة الإنسانية، وبين الحد الأكثر تقنية للهيرمينوطيقا وهو التأويل النصي، الذي يفترضه، الزوج (قراءة-كتابة). (ريكور 2، 2006، ص 86)

ثانياً: - ما النص؟

بصفة عامة يعد تعريف النص قضية جدلية و إحدى الإشكاليات التي تناولتها الهيرمينوطيقا، ولذلك هناك عدد كبير من التعريفات المتعارضة. (برينكر، 2010، ص 28) وذلك نتيجة مباشرة للخلاف بين المدارس الفكرية على نقطة الانطلاق في تعريف النص؛ فهناك تعريفات متعددة تشرح مفهوم النص بصفة عامة، وأخرى تبرز الخواص النوعية الماثلة في بعض أنماطه المتعينة، خاصة الأدبية، وهو ما يحول بيننا وبين تحديد واضح وقاطع للنص بمجرد إيراد التعريف. (فضل، 1993، ص 211)

وحتى بالنسبة لهيرمينوطيقا ريكور فمعنى النص قد يتسع عندما ينظر إليه بوصفه موضوعاً للتأويل، إلى الحد الذي قد يكون فيه النص رموزاً في حلم، أو رمزا لأساطير وأدب المجتمع. (Reynhou, 2013, p. 38) متفقاً في ذلك مع غادامير الذي صنف أي عمل جمالي على أنه نص، وبذلك تكون التأويلية أقرب إلى فلسفة الجمال. (غادامير، 2007، ص 249) وقد يكون (الفعل) الإنساني نفسه (نصاً): بل ويسمح الفعل بتأوله كنص مثبت، أو هو نمط من أنماط نقل الدلالة، والتي هي أيضاً يمكن أن تستقل عن فاعلها -وهو البعد الاجتماعي للفعل- كما يستقل النص عن مؤلفه بفعل الكتابة، وبالتالي فإن أفعالنا تنقلت منا، لأن لها تأثيرات لم نقصدها. (2001، ص ص 147-151) وهذا التوسع الكبير في مفهوم النص -بوصفه يشمل كل ما يقبل التأويل- هو نتاج تأثر ريكور بمدارس التحليل النفسي وفرويد، والأنثروبولوجيا البنوية أيضاً، ويتوافق مع مشروعه ذو الصبغة الإنسانية الشاملة.

ثالثاً: -شمولية الخطاب وخصوصية النص

قد حاول ريكور في إطار نظريته الخاصة بالنص، أن يتبنى تعريفاً أكثر تحديداً للنص، عن التعريفات الواسعة والمتباينة التي تطرق إليها خلال تطور أفكاره الهيرمينوطيقية، لكي يحقق هذا التعريف، الهدف من نظريته، التي يربط فيها كما أشرت سابقاً بين (الخطاب) و (النص)، وبالتالي ركز في تعريفه للنص على تلك العلاقة التي تجمع بينه وبين خطاب، من حيث الاتفاق والاختلاف، لأن النص المكتوب في نظر ريكور، هو في الأساس شكل من أشكال الخطاب، وشروط إمكان الخطاب، هي نفسها شروط إمكان النص. (ريكور 3، 2006، ص 54) والحديث هنا عن الشروط العامة المتعلقة ببنيته وما يحمله من معنى.

والفارق الوحيد بين الخطاب والنص هو التثبيت بالكتابة: أي أن النص ما هو إلا خطاب تُبَت بالكتابة، وهو ما يجعل التثبيت بالكتابة مؤسساً للنص نفسه، فالنص خطاب أثبتته الكتابة، وما أثبت بالكتابة هو خطاب كان بإمكاننا أن نقوله، أي أننا نسلم نصاً كل خطاب تثبته الكتابة. (2001، ص 105، 106، 85) وتجدر الإشارة هنا إلى أن ريكور لم يضيف جديداً، فهذا التعريف الذي يقرن بين النص والكتابة، هو أحد التعريفات المتداولة في الأوساط اللغوية. (برينكر، 2010، ص 27)

رابعاً: - الكتابة (التدوين) بوصفها سحراً

يؤكد ريكور أن السمة الوحيدة التي تميز النص عن بقية أشكال الخطاب، هي الكتابة (التدوين)، ولكون الكتابة أصبحت شرطاً للنص، فلقد وضع نظريته عن النص، من خلال تحديد ما تحدثه الكتابة من أثر على الخطاب، فعلى الرغم من أن الكتابة تبدو للوهلة الأولى، أنها لا تدخل سوى عامل خارجي، ومادي صرف، هو (التثبيت)، الذي يجعل حدث الخطاب في منأى عن الدمار، إلا أن الحقيقة عكس ذلك تماماً، فالتثبيت ليس سوى ظاهر خارجي، لمشكلة أهم تطال خصائص الخطاب. (ريكور 2، 2006، ص 85)

فتثبيت الخطاب على حامل خارجي (الأحجار أو الأوراق)، يخفي الواقع البشري، وتحل محله العلامات المادية لنقل الرسالة، ويؤدع مصير الخطاب، في أيدي الحروف المكتوبة. (ريكور 3، 2006، ص 60) حيث تحدث الكتابة تحولاً هائلاً في الخطاب عند تحويله إلى نص، فتجعل منه وثيقة رهن إشارة الذاكرة الفردية والجماعية، كما تزيد من فاعلية الرموز. (2001، ص 107) ويبدو أن ريكور قد استعان بأستاذه (غادميرا) الذي يرى أنه لا شيء يبدو غريباً ومطلوباً كالكتابة، ولا شيء يصلح لأن يكون أثراً خالصاً للعقل كالكتابة، وفي فك شفرة الكتابة تحدث معجزة تحويل شيء غريب وميت، إلى شيء معاصر وحي، وهذا لا يضاهيه شيء مما يأتي من الماضي، إن الكتابة تشبه فناً سحرياً، هو سحر يقيدنا ويحررنا. (غادامير، 2007، ص 248) والربط بين الكتابة والسحر نجده أيضاً عند (فندريس) الذي يعتبر أن الكتابة في الأصل هي طريقة من طرق السحر، فيكفي أن تكتب اسم الشخص على قطعة من جلد حيوان حتى تتحكم فيه وتجعله تحت تصرفك. (عجب، 2017، ص 60)

ومن خلال ذلك، تعمل الكتابة، على جعل النص أكثر امتلاءً بالروح، لأنه يتحرر من ضيق المشافهة. (2001، ص 63) ويتحرر من كل القيود التي تكبل معانيه، حيث يستقل تجاه نية المؤلف، وتجاه الوضع الثقافي وجميع المكيفات السوسولوجية لإنتاج النص، ثم تجاه المرسل إليه البسيط. (2001، ص 289) أي أن الخطاب وبفضل الكتابة يكتسب استقلالاً ذاتياً دلالياً ثلاثياً: تجاه قصد المتكلم، وتجاه تلقي الجمهور البسيط المباشر، وتجاه الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تنتجها، وعلى الهيرومينوطيقاً تتبع هذه التغيرات لاستعمالها في التأويل. (2001، ص 24)

خامساً: - النص يقتل مؤلفه

وأول ما تقوم به الكتابة، هي أنها تعين النص على قتل مؤلفه، لأن قراءة كتاب ما، هي النظر إلى مؤلفه كأنه قد مات، وكأن الكتاب عمل بعدي، حيث تصبح بالفعل العلاقة مع الكتابة تامة وثابتة بشكل ما، عندما يموت الكاتب، آنئذ لا يمكن لهذا الأخير أبداً أن يجيب، وما يبقى هو قراءة عمله فقط. (2001، ص 106) مع الكتابة لا يتوافق المعنى اللفظي للنص مع المعنى العقلي أو قصد النص. لأنه لم يعد يحمل صوت

شخص حاضر. النص أخرس لا صوت له. أي علينا تخمين معنى النص، لأن قصد المؤلف بعيد عن متناول أيدينا، خلافا للرومانسية التي تدعي فهم المؤلف أكثر مما فهم نفسه. فالمؤلف لا يستطيع إنقاذ عمله وغالبا ما يكون قصده مجهولا، أو زائدا عن الحاجة أو عديم الفائدة بل قد يكون مضرا بتأويل المعنى اللفظي. في أحسن الأحوال يجب أخذه بالاعتبار. (ريكور، 3، 2006، ص 122)

لأن الكتابة تجعل معنى النص يفلت من مؤلفه؛ فلم يعد النص يتطابق مع ما كان الكاتب يريد أن يقوله، فالدلالة اللفظية (التي تنقلها اللغة) والدلالة الذهنية (التي تكون حاضرة في ذهن المؤلف) لهما مصيران متميزان، وهذه الصيغة الأولى للاستقلال، وهي التي تتيح إمكانية أن يفلت ما يسميه ريكور (شيء النص اللامحدود) أو معنى النص اللامحدود، من الأفق القصدي المحدود للتأليف، وأن يعمل عالم النص على تفجير مؤلفه. (2001، ص 289) وهكذا تفلت وظيفة النص من الأفق المحدود الذي يعيشه مؤلفه، ويجعل الاستقلال الدلالي للنص، معنى المؤلف، بعدا من أبعاد النص، لأنه لا يمكن استحضار المؤلف لاستجابته، ولا يجيب عنه النص. (ريكور، 3، 2006، ص ص 61، 62) وهذا ما يجعل قصد مؤلفه ذاته سؤالا هيرمينوطيقيا. (2001، ص 24)

سادسا: -كسر الحلقة الحوارية (المرسل-المتلقي-السياق)

يستمر ريكور في الاستفادة من نظرية الكتابة، معتبرا أن غياب المؤلف يمثل بعد ذلك، عنصرا جوهريا، لكونه يعني غياب أحد أطراف الحالة الحوارية، وبالتالي انتفاء تلك الحالة برمتها، وانتفاء ما يترتب عليها، لأن شروط التفسير المباشر Direct interpretation، أو التفسير البسيط Simple interpretation من خلال تفاعلية لعبة السؤال والجواب، التي تدار من خلال الحوار، لم تعد ممكنة، وهذا بسبب إدراك الخطاب بوصفه نصا، حيث لم يعد ممكنا مع الكتابة السؤال (ماذا تعني بذلك؟) أو (ما معنى ذلك؟). (1981, p 45) وبالكتابة لم تعد الرسالة مرتبطة بالمتكلم، وتستبدل المشافهة وجها لوجه بعلاقة قراءة الكتابة الأكثر تعقيدا، ولقد تم نسف الموقف الحوارى بالكامل. (ريكور، 3، 2006، ص 60)

ويرفض ريكور تشبيه القراءة بالحالة الحوارية التي يقيمها الحوار بين المرسل والمتلقي، فالقراءة ليست حوارا مع المؤلف من خلال كتابه، لأن علاقة القارئ بالكتاب، هي علاقة من طبيعة أخرى؛ الحور تبادل أسئلة وأجوبة، وتبادل من هذا النوع غير موجود بين المؤلف والقارئ، المؤلف لا يجيب القارئ، القارئ غائب من الكتابة، والكاتب غائب من القراءة. وهكذا ينتج النص احتجابا مزدوجا للقارئ والكاتب، وبهذه الطريقة يحل في علاقة الحوار التي تربط مباشرة صوت الواحد بسماع الآخر. (ريكور، 1988، ص 48)

فالخطاب الموجه لمخاطب حاضر يختلف عن خطاب موجه إلى كل من يعرف القراءة، هذا بدوره يسم روحية الكتابة، وحضور الذوات المشتركة في الخطاب، يكف عن أن يظل هو نموذج كل فهم. (2001،

ص 146) ففي القراءة يكاد يحدث تماهي بين المؤلف والقارئ حيث يجمع النص بين الاثنين معا، إلى حد لا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر، وبالتالي لا يكون الحوار هنا بين ذوات قادرة على التواصل، بل هي ذات القارئ بمفردها في مواجهة النص.

مع التأكيد أن وجود حالة حوارية هو (افتراض)، ووجود علاقة تفسير مباشر بين المتكلم والمستمع هي (افتراض مكمل)، قد تحدث حالة الاستماع دون وجود حالة التفسير المباشر، ويمكن القول أن تصور ريكور لضيق الحال الحوارية مبالغ فيه: فهو يتجاهل طبيعة اللغة التي يحاول التأكيد عليها في سياقات أخرى؛ فبعض كلمات اللغة وبعض الرموز التي يمكن التعبير عنها لفظا، يمكن أن يقولها المحاور بشكل ما، وتصل إلى المتلقي بشكل آخر. أي أن سوء الفهم وسؤال المتلقي للمتكلم حادثة ليس بالضرورة أن تحدث، ولا يوجد أي وسيلة يمكن من خلاله أن يتقطن المتكلم لسوء فهم المستمع (كطرح أسئلة على المستمعين).

سابعاً: -التدوين (اللا زمان واللا مكان)

يرى ريكور أنه ليس الهدف من تثبيت الخطاب البشري بالكتابة، هو صونه من الدمار فحسب، بل هو ينزع إليها بعمق في وظيفته الاتصالية. (ريكور 3، 2006، ص 55) وذلك لأن النص ليس مقطعا في سلسلة تاريخية، بل هو بالأحرى، نوع من الموضوع اللا-زمني، الذي قطع روابطه بالتطور التاريخي بمجمله، فالكتابة تهزم كل شيء، إنها تتضمن تغلبا على العملية التاريخية، وتنتقل الخطاب إلى عالم المثالية، الذي يسمح بتوسيع لا نهائي لعالم الاتصال. (ريكور 3، 2006، ص 143، 144) ويطلق ريكور على ذلك، (صيرورة الخطاب)، حيث يصبح الخطاب مشروعا يتحقق بشكل مستمر في العالم. (ريكور 3، 2006، ص 72)

ويتفق ريكور في موقفه من الكتابة مع (غادامير)، إذ يرى أن الكتابة تقيدنا وتحررنا، ففيها يبدو الزمان والمكان ملغيين، والذين يستطيعون القراءة ينتجون حضورا محضا للماضي ويحققونه. (غادامير، 2007، ص 248) فالكتابة ليست مجرد نقل الخطاب من حالة شفوية إلى حالة الكتابة لحماية الخطاب من الضياع، بل هي عملية ذات أثر أعمق بكثير، لأنها تجعل الخطاب (معنى الحدث) قادرا على الدخول إلى تاريخ البشرية، وأن يصبح أحد عناصر التواصل الإنساني، أي أن الكتابة تقحم الخطاب في تواصل لا نهائي عبر تخطيه حدوده الزمانية والمكانية الراهنة.

ويرى ريكور أيضا أن تحرير النص من الشفوية، يسبب اضطرابا حقيقيا في العلاقات بين الكلام والعالم أيضا، فيطال هذا الاضطراب علاقة الكلام المرجعية بالعالم، عندما يأخذ النص مكان الكلام. (2001، ص 107) ففي الخطاب المنطوق يكون المعيار الأخير للمجال المرجعي لما نقوله هو إمكانية عرض الشيء المحال إليه من حيث هو جزء من سياق يشترك به المتكلم والسامع، وهذا السياق يحيط بالحوار. (ريكور 3، 2006، ص 68) إلا أن الكتابة تشوه المرجعية إلى درجة جعلها إشكالية تماما. لأنه في الخطاب الشفوي،

تحل المشكلة في وظيفة الخطاب المبينة، أي الواقع الجامع بين المتحاورين. فالـ(هنا) والـ(آن) يقدمان المرجع الختامي لكل خطاب. ولكن في الكتابة تبدأ الأشياء في التغيير؛ لم يعد ثمة وضع مشترك بين المؤلف والقارئ. (2001، ص 87). وتعد خاصية التناهي التي تمنحها الكتابة للنص، من أهم خصائص العمل الفني، والأدبي، إذ يتسامى بشروطه النفسية-السوسولوجية لإنتاجه، وأن يفتح بذلك على سلسلة غير محدودة من القراءات، تكون هي نفسها متموقعة في سياقات سيوسيو-ثقافية مختلفة على الدوام. (2001، ص 289) ويصبح النص أكثر بكثير من كونه حالة تواصل خاصة بين البشرية، فهو نموذج المبادعة في التواصل، بهذه الصفة يوحى بالخاصية الأساسية لتاريخية التجربة الإنسانية، على أنها تواصل في المبادعة وبها. (2001، ص 78) وهذا ما يجعل من النص ليس مجرد شيء مغلق على ذاته، بل هو مشروع كون جديد، منفصل عن الكون الذي نعيشه. (وود، 1999، ص 47)

وقد وجهت لنظرية الكتابة (نقل الصوت إلى حروف) لانتقادات كثيرة، منذ أفلاطون إلى دريدا، ولذات الأسباب التي يمتدحها لأجلها ريكور، فهي تساعد ذاكرتنا من جهة، ولكنها تساهم في ضمور تلك الذاكرة من جهة أخرى، حيث تعتبر بذلك بعيدة عن الحياة، لا بل تعادياها، وذلك لكونها تقرأ وتعاد قراءتها في سياقات مختلفة ومتغيرة، تكون قابلة للتأويل وغير ثابتة، وهذا ما يجعلها تتبع الرأي المتقلب، بدلا من أن تضمن حضور الحقيقة الذي يقوم به الصوت الحي، هي لا تقدا لنا شيئا موضوعيا بل رأيا، أي أن الكتابة ترفض لأنها تسبب عدم ثبات المعنى، ولا تسمح بتجلي الحقيقة. (زيماء، 1996، ص 58)

ثامنا: -الكتابة (تائيا) (تمأسفا) Distanciation -القراءة (تملكا)

لا ينكر ريكور تلك الانتقادات، الموجهة لنظرية النص بل يقر بها: مؤكدا على أن الخطاب عندما يصبح نصا، يبدأ السؤال عن مرجعيته، وتتحول المرجعية إلى إشكالية، لكون الكتابة قد شوهت الأثر الأدبي الذي كان متاحا بسهولة في الحالة الشفهية بسبب الواقع المشترك بين المتحاورين. (2001، ص 87) بل قضية المرجعية هي إشكالية قبل حتى الكتابة، لكون إلغاء السياق قد يتأتى من خلال الرواية الشفهية ذاتها، لكون الرواية تحقق سياق بين المستمع والمتكلم، وليس بين المتلقي والمضمون، كما أن الراوي يختلف عن المؤلف وعن المتلقي. (بارت، 2010، ص 82) ونظرا لأهمية السياق أو المرجعية ما يحول دون إمكانية الاستغناء عنه. (برينكر، 2010، ص 144) يرى ريكور، أن النص ذاته سوف يقوم بهذه المهمة، ويجعل من العالم، مجموع الإحالات التي تفتتحها النصوص. (ريكور، 3، 2006، ص 70)

ولكي يتحقق ذلك، ويتمكن النص من استرجاع مرجعيته وذواته المسلووية، ولا تكون الكتابة شيئا سلبيا، لا بد من وجود طرف آخر يكون مكملا لها، ومن هنا يطرح ريكور نظريته القائمة على ثنائية (الكتابة-القراءة)، وهي نظرية لها جذورها لدى العديد من رواد الهيرومينوطيقا: حيث يرى (غادامير) أن النصوص تفقد

كل صلة بمرجعيتها حين تكتب، ولا تحقق مؤداها إلا حين تُقرأ. (غادامير، 2007، ص 249) أما (بارت) فيرى أن القراءة تجعل للمكتوب بدايات لا تنتهي: إنها تكوّن المكتوب على نفسه، فهو لا يزال بها يدور، حتى لكأن كل بداية فيه تظل بداية. ولذا كانت نصوص القراءة هي نصوص البدايات المفتوحة: إنها تكتب، وتقرأ، ولكنها لن تبلغ كمالها كتابة، ولا تمامها قراءة. (بارت، 1992، ص 11)

ولم يذهب ريكور بعيدا، إذ يرى أن الكتابة تقوم بإلغاء كل شيء، وإبقاء النص معلقا، والقراءة وحدها هي القادرة على إعادة النص إلى روابطه الزمنية والمكانية، وهذا الإلغاء، يجعل من الكتابة خطوة تأويلية. (ريكور، 3، 2006، ص 78) ومن هنا يستدعي النص باعتباره كتابة قراءة ما، لأن النص عندما يُكتب يصبح وكأنه معلق في الهواء، وهو بمعنى من المعاني (خارج العالم أو بلا عالم)، وبما أن النص الذي يفتقر إلى المرجعية، (أو يفتقر إلى العالم) لا يمكن فهمه، ولذلك تتكفل القراءة -بصفتها تأويلا- بمهمة انجاز مرجعية النص. (2001، ص ص 108-117)

فليس هناك سوى الإمكانيتين اللتان هما نتاج جدلية القراءة، فبوسعنا كقراء أن نبقى في تأجيل النص، والتعامل معه على أنه نص بلا عالم وبلا مؤلف، سنشرحه إذا انطلقا من علاماته الداخلية ومن بنيته. أو بإمكاننا أن نرفع التأجيل عنه وننهيه في الألفاظ، وإخضاعه للتواصل المباشر، ونؤوله. (ريكور، 3، 2006، ص 112) وبإمكاننا عبر القراءة أن نمدد ونعمق التأجيل الذي يؤثر على مرجعية النص، بمحيط عالم ما، وبحضور الذوات المتكلمة، ولكن يمكن لنا كذلك أن نزيح هذا التأجيل، ونختم النص بكلام لحظي Present speech. (ريكور، 3، 2006، ص 117)

وإزاحة المؤلف من القراءة تبقى النص معلقا، مما قد يضيع الكثير من الإحالات الخارجية للنص، لأن عالم النص يشير إلى انفتاح النص على خارجه، وأن عالم النص، مأخوذا بمعزل عن القراءة، يبقى معلقا، وعن طريق القراءة وحدها تكمل فاعلية التصور مسيرتها. (ريكور، 1، 2006، ص 238) وفعل القراءة هو الذي يكمل العمل الأدبي، ويحوّله إلى دليل للقراءة، بما فيه من مزايا غير قطعية وثروة تأويلية خبيثة، وقدرة على أن يعاد تأويلية بطرق جديدة وفي سياقات تاريخية جديدة. (وود، 1999، ص 48) ومن هنا تبدأ العلاقة بين الكتابة والقراءة من خلال جدل التثائي والتملك، تكتسب معناها العميق جدا. (ريكور، 3، 2006، ص 81)، أي أن جدلية الكتابة-القراءة هي ترجمة لجدل التثائي (ابتعاد النص عن سياقه المكاني والزمني) والتملك (إعادة إدراج المعنى في سياق جديد بفعل القراءة)، فقد كان التثائي يعني قبل كل شيء الغربية (غربة النص)، وكان المقصود من التملك، أن يكون علاجا يستطيع إنقاذ التراثيات الثقافية الماضية من اغتراب المسافة (إعادة إنتاج المعنى بالقراءة)، وقد حددت هذه الثنائية (الكتابة-القراءة) أو (التثائي-التملك) تاريخية التأويل برمته. (ريكور، 3، 2006، ص 142)

بهذا الكيفية تتحول عملية (القراءة-الكتابة) إلى عملية تأويلية، فالكتابة تستدعي القراءة تبعاً لعلاقة تسمح لنا بإقحام مفهوم التأويل، فيصح التأويل نتيجة، يثيرها الزوجان المؤتلفان سوياً، وهما (الكتابة والقراءة). (ريكور 2، 2006، ص 86) وتبعاً لذلك تصبح مشكلة (التنائي) أو (التأسف) Distanciation التي تثيرها هي مشكلة الهيرمينوطيقا الجوهرية. (ريكور 3، 2006، ص 55) وتكون مهمة التأويل ليس إنكار هذا التنائي، بل التحكم فيه. (2001، ص 86) والتعامل معه على أنه (تنائي منتج)، إذ قد يتحول إلى أداة معرفية. (ريكور 3، 2006، ص 142) وعليه يؤكد ريكور أن التأويل -إذا فهمناه فلسفياً- ليس سوى محاولة جعل التنائي (فصل النص عن سياقه بفعل الكتابة) شيئاً منتجاً. (ريكور 3، 2006، ص 81)

المبحث الثالث: -مثالب ومناقب القراءة

أولاً: -مناقب (القراءة) التأويل مقاومة الماضوية

وهذه العملية المركبة من ثنائية (الكتابة-القراءة)، وتمثل بشكل عام التأويل، لها العديد من الأهداف، ولكن ريكور يضع لها هدفاً أساسياً، تتمثل في مقاومة المسافة الثقافية والانتصار عليها، وضد المبادأة الجيلية، وضد تنائي المعنى. (2001، ص 118) وهو ما يجعل امتلاك المعنى بعد أن غزبته الكتابة، هو الهدف النهائي لكل تأويلية، حيث يسعى التأويل في مرحلته الأخيرة إلى المساواة والمعاصرة والاندماج، وتتحقق هذه الغاية بمقدار ما يحقق التأويل معنى النص للقارئ الحاضر. (ريكور 3، 2006، ص 144) فالهدف الأساسي للتأويل هو جعل النص يكتسب معنى معاصراً، يجعله متوافقاً مع زمن التأويل.

إضافة إلى ذلك، فإن النص يصبح أكثر خصوبة من حيث المعنى، لأن ابتعاد المعنى عن سياقه الزمني، يجعله أكثر قابلية لخلق معنى أكثر قيمة، عندما يمارس عليه التأويل، بل إن التأويل المعاصر هو أضعف التأويلات التي يمكن تقديمها، فدلالة حدث ما، هي المعنى الذي يعطيه إياه التأويلات اللاحقة، أما تأويل المعاصرين، فليس لديه أي امتياز خاص في هذه الصيرورة، وبالتالي فإن من يحكمون على النص (أو يؤولونه) هم أولئك الذين يصلهم عبر التاريخ، أما المعاصرون، فهم من يقدمون أضعف التأويلات. (2001، ص 151، 152) ولذلك يصبح ما يعنيه النص الآن، مهماً أكثر مما كان يعنيه المؤلف عند كتابته، وهذا الاستقلال الدلالي للنص، ذو أهمية بالغة للتأويل. (ريكور 3، 2006، ص 61)

ثانياً: -مثالب (القراءة) التأويل

بما أن ريكور قد اعتبر القراءة مكتملة للكتابة وهما طرفا العملية التأويلية، فهو يقع ضمن دائرة نظرية القارئ أو التلقي، التي تعدي للقراءة المساحة الأكبر في التأويل، وهذه النظرية تعرضت لانتقادات كثيرة، تناولها ريكور نفسه في سياق الرد عليها، وأول تلك الانتقادات، ما يتعلق بالقارئ المطلق، فغياب السياق المشترك، الذي تولده المسافة المكانية والزمانية، بين الكاتب والقارئ، ما يفتح النص على مدى لا محدود

من القراء الضمنيين في زمان غير محدد. (ريكور3، 2006، ص 69) وذلك لأن القراءة، تعطي النص القدرة على أن يندرج في السياق بكيفية مختلفة، وينتج عن ذلك أن وساطة النص، تخلق (متلقين) يتسع عددهم احتمالاً إلى كل من يعرف القراءة. (2001، ص 290) وهنا ينفلت الخطاب من حدود المناظرة، ولم يبق له مستمع مرئي، وأصبح القارئ المجهول، اللا مرئي، هو مستقبل الخطاب، الذي لم يقع عليه الاختيار. (ريكور3، 2006، ص 146)

كما أن الكتابة-القراءة، تجعل النص متساوياً بين أولئك الذين يفهمون الموضوع وبين الذين لا يعيرونه اهتمامهم، فالكتابة لا تميز بين القراء الملائمين وغير الملائمين. وهذه العوامل تجعل من التأويل شيئاً لا يمكن الوثوق به، بل تجعله مشاعاً، فكل تحديد لمضمون خطاب ما، يشكل موقفاً تأويلياً. (إيكو، 2004، ص 76) والقبول بفكرة أن يكون التأويل لا متناه، معناه أن كل الأفكار صحيحة، حتى لو تناقضت فيما بينها، وكل الإحالات ممكنة، حتى ولو أدت إلى إنتاج مدلولات عبثية، وهذا أمر يتناقض مع المبادئ المؤسسة للعقلانية الغربية وقد يؤدي إلى تدميرها. (جاسبر، 2007، ص 25)

خاتمة

يبدو جلياً أنه كلما ابتعد ريكور عن هيرومينوطيقا اللاهوت، فإنه يسهب في عرض أفكار الآخرين دون أن يقدم إضافات حقيقية، وهذا ينطبق على نظرية الخطاب ونظرية النص أيضاً، فكل ما جاء فيهما هو تكرار لأفكار البنيوية والتفكيكية ومن قبلها أفكار أفلاطون عن الكتابة والنصوص، وكذلك تكرار أفكار غادامير وبارت حول القراءة، وإن كان يحسب له هو مزج هذه الأفكار وتبسيطها في عرض منظم ومتسلسل منطقياً.

ورغم ذلك لا يمكن التقليل من حجم ما قام به ريكور في حقل الهيرومينوطيقا، شريطة أن ينظر إلى مشروعه الهيرومينوطيقي في كليته، حيث تعتبر نظرية الخطاب والنص مجرد حلقة من سلسلة أكبر، تكون بدايتها في هيرومينوطيقا اللاهوت، ومن ثم هيرومينوطيقا الاستعارة والرمز، ثم بعد ذلك تصل في النهاية إلى صلب مشروع ريكور، وهو المزج بين الذاتية والموضوعية في التأويل.

وجدير بالذكر، أن ريكور وضع نظريته حول التأويل لكي يتجاوز بها ما وجه له من انتقادات بخصوص نظريته عن النص وما يترتب عليها من إشكاليات عميقة تتعلق بالقراءة وتحولها إلى مجرد ذاتية صرف لا تختلف عن (المدرسة الرومانسية) ولكنه استبدل (ذاتية المؤلف) بذاتية أخرى تتعلق (بالقارئ) وهو صراع شهير وقديم بين الرومانسية الذاتية والبنيوية الموضوعية.

قائمة بالمصادر والمراجع المستخدمة

أولا قائمة المصادر العربية

1. إمبرتو إيكو (2004) التأويل بين السيميائيات والتفكيكية؛ ترجمة سعيد بنكراد. - الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي،
2. رولان بارت... وآخرون (2010) شعرية المسرود؛ ترجمة عدنان محمود محمد. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.
3. رولان بارت (1992) لذة النص؛ ترجمة منذر عياشي. - دمشق: مركز الانماء الحضاري.
4. كلاوس برينكر (2010) التحليل اللغوي للنص؛ ترجمة سعيد حسن بحيري. - القاهرة: مؤسسة المختار للنشر.
5. دايفيد جاسبر (2007) مقدمة في الهيرومينوطيقا؛ ترجمة وجيه قانصو. - بيروت: الدار العربية للعلوم.
6. بول ريكور (1988) "النص والتأويل"؛ ترجمة منصف عبد الحق. - مجلة العرب والفكر عالمي، ع 3.
7. _____ (1999) "الاستعارة والمشاكل الأساسية للهيرومينوطيقا"؛ ترجمة مصطفى النحال. - مجلة فكر ونقد، ع(60)، المغربية، الدار البيضاء
8. _____ (2001) من النص إلى الفعل (أبحاث التأويل)؛ ترجمة محمد برادة، حسان بورقية. - القاهرة: عين للدراسات والبحوث.
9. _____ (2009) الذاكرة التاريخ النسيان؛ ترجمة جورج زيناتي. - بيروت: دار الكتاب الجديد.
10. _____ (2016) الاستعارة الحية، ترجمة محمد الولي. - بيروت: دار الكتب الجديدة.
11. _____ (2006) الزمان والسرد ج3 "الزمان المروي"؛ ترجمة سعيد الغانمي. - بيروت: دار الكتاب الجديد.
12. بول ريكور (2006) بعد طول تأمل؛ ترجمة فؤاد مليت. - بيروت: الدار العربية للعلوم.
13. بول ريكور (2006) نظرية التأويل (الخطاب وفائض المعنى)؛ ترجمة جورج زيناتي. - الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
14. بيير. ف زيمبا (1996) التفكيكية (دراسة نقدية)؛ ترجمة أسامة الحاج. - بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر.
15. عبد المنعم عجب (2017) من التفكيك إلى التأويل. - دمشق: دار نينوى.

16. قادري عليمه (2008) التداولية وصيغ الخطاب من اللغة إلى الفعل التواصلية. - أعمال مؤتمر (السيمياء والنص الأدبي). - بسيكرة: منشورات كلية الآداب-جامعة محمد خيضر.
17. هانز غدامير (2007) الحقيقة والمنهج؛ ترجمة حسن ناظم، على حاكم صالح. - طرابلس: أوياء.
18. صلاح فضل (1993) بلاغة الخطاب النص. - الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.
19. على المحمداوي (2013) الفلسفة الغربية المعاصرة (ج 2) الاختلاف. - الرباط: د-ن.
20. عبد الحق المنصف (2017) بول ريكور أنطولوجيا القدرة الإنسانية. - الأزمنة الحديثة، ع 14.
21. ديفيد وود "محررا" (1999) فلسفة بول ريكور (الوجود والزمان والسرد)، ترجمة سعيد الغانمي. - الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

ثانيا قائمة المصادر الاجنبية

1. Kaplan , David M. (Edit)(2008) Ricoeur's Critical Theory, Reading Ricoeur, SUNY Press
2. Wood , David "Edit", (2011) On Paul Ricoeur: Narrative and Interpretation, Routledge
3. Reynhou, Kenneth A., (2013) Interdisciplinary Interpretation Paul Ricoeur and the Hermeneutics of Theology and Science, Lexington Books
4. CASEY, PATRICK J., (2019) Ricoeur on Truth in Religious Discourse :A Reclamation , Horizons , Volume 46 , Issue 1 , June, Cambridge University
5. Ricoeur, Paul (1981) Hermeneutics and the Human Sciences: Essays on Language, Action and Interpretation, ed., trans. John B. Thompson. Cambridge: Cambridge University Press
6. Farquhar, Sandy, (2010) Ricoeur, Identity and Early Childhood, Rowman & Littlefield Publishers,